تأملات في كارثة ١١ أيلول أسسها والنتائج

بقلم الكولونيل شربل بركات

بعد سنة على العملية التخريبية التي أيقظت العالم، وخاصة العملاق الأميركي، الذي طالما نام على حرير، لأنه يقع على المقلب الآخر من العالم حيث لا يستطيع الإرهابيون الوصول ولا أسلحتهم، لا بد لنا من مراجعة الأسباب والنتائج. ولا بد لنا أيضا كلبنانيين من قراءة للأمور من الجانب الذي يؤثر فينا ونؤثر فيه على مجموع المشاكل العالمية.

كان لبنان السبعينات ساحة الإرهاب العالمي، فيه تحضر المؤامرات، وتدرب العناصر، ومنه تنفذ المهمات، وعليه تقع التبعيات والنتائج. وكان ما كان، وقد رفض الصالحون في لبنان أن يبقى هكذا ساحة لصراعات الآخرين، فقد كان هؤلاء جعلوه، بكدهم، وجهدهم، قبلة الأنظار، ومركز الاستقرار، وهيكل الحريات، حتى جاءه كل من هرب من تعسف أو ضيق فوجد به مستقرا، وكل من انقلب عليه أهل بيته فوجد به ملجأ، وكل من رفض العبودية وعشق الحرية فاتخذ منه موطنا. هذا اللبنان الذي نترحم عليه اليوم، كان أيضا الحصى التي تسند جبل الاستقرار العالمي، وقد رفض له العالم أن يبقى مستقرا، وأعمى عيون المارد النائم على حرائر العز، تدفق النفط وأمواله، فسمح للشر أن يتملك به. وبالرغم من أن أهل البيت قاموا وحاولوا، كما الأم الصالحة، أن تحمي أبناءها من شر الطارئين، واستنجدوا بالقريب والبعيد فلم يلقوا آذانا صاغية، لأن النفط وتجاره كانوا يغلقون القلوب والآذان ويكمون الأفواه والعيون.

واليوم وبعد سنة على الكارثة العالمية، حيث وصل الشر إلى كل الرؤوس، قامت القيامة وبدأ العالم يعي مشكلة الإرهاب ومن يحميه ومن يغذيه ومن يتستر عليه.

فعندما حاول لبنان في ١٩٧٣ أن يقضي، كما الملك حسين، على الإرهاب سارعوا إلى تهديده، ولم يتدخل العالم الحر، بحجة الصراعات الكبرى بين الشرق والغرب.

ويوم دخلت إسرائيل إلى الجنوب في المرة الأولى (١٩٧٨) واتخذ العالم قرارا بخروجها هو ٤٢٥ رفض العرب أن يحجم الإرهاب وينزع سلاحه، وقبل العالم بذلك فاستمرت المهزلة.

ويوم اغتر عرفات من جديد وعادت إسرائيل لتلحقه حتى بيروت، تدخل العالم لتخرج مقابل طرد عرفات إلى تونس، ولكن الشر نفسه بقي، واستبدل الإرهاب الفلسطيني بالإرهاب الفارسي، إرهاب حشاشي حسن الصباح (القرن الثاني عشر)، وكان حزب الله (أعوذ بالله من تلطيخ إسمه). واستمر الإرهاب فعض إصبع المارد، وخال الناس أنه سينتفض، ولكن صاحب النفط وأمواله وأمثاله سارعوا إلى النصيحة بعدم استعمال العنف خشية على المصالح، فسحب المارد يده وعاد إلى ثباته.

ويوم خطف كل أجنبي في بيروت ليجعلوها ذات لون واحد أحد لا يعرف إلا العنف وجها وقلبا، قامت الأيدي الناعمة من جديد بمهمة إعادة المارد لنومه. ثم كانت الحروب على لبنان الصغير الذي قبل به أهل البيت مكانا، ولو صغيرا، ولكنه خال من الإرهاب وجماعته، فأدخلوه في الحروب الصغيرة ثم قضوا عليه بمباركة الكبار، بحجة أن حرب الخليج أهم من تفاصيل الحرية واستقلال الشعوب.

وانتهت الحرب وانتهى الشرق وصار العالم كله غربا، ولم يخلص لبنان، ولم ينزع سلاح الأشرار بل أهل البيت، ولم يطرد المخربون بل رأس الحكم، ولم يسجن المجرمون بل قادة البلاد، بعد أن ذبح بعضهم كالنعاج مع عائلاتهم وفي بيوتهم دونما حسيب أو معترض.

وقلنا أن إسرائيل هي الحل لأنها تعرف مكامن الوجع ومطارحها، وهي تعيش الشرق ومشاكله. وإذا بها تبلع الطعم وترجع عرفات رئيسا لدولة، ثم تنسحب من لبنان في ليلة ليلاء كاللص الهارب تحت جنح الظلام، فتعطي دفعا جديدا للإرهاب يمباركه لارسون باسم الأمم المتحدة وساترفيلد باسم واشنطن، ويأتي كوفي عنان ليتوج نصر الله، الذي كان أمر بقتل رئيس المراقبين الدوليين في لبنان الكولونيل هيغنز الأميركي، ملكا على الساحة فيتمثل به كل الإرهابيون ويعود الدفع إلى الشر فيغوى ويندفع عبر البحار ليصل إلى مضجع المارد النائم فيوقظه. ويتحمس الأخوة في بيت المقدس ويهاجمون، على طريقة حزب الله وبن لادن، فلول اليهود في أروقة تل أبيب ونتانيا وبقية مدن "الأرض السليب" ولا يريدون التوقف قبل أن يلقنوا أمريكا الدرس ويرموا زبانيتها في البحر...

واستيقظ المارد وأرعد وتوعد وضرب برجله أرض الطالبان ونظف الأفغان وقصف البلدان... وفي ميدان الشرق انتزع شارون الحكم من الحمائم الحالمة، وأنقض على الإرهاب وأعوانه، فأخذ بطريقه كل شيء، ورجع العالم عن أحلام السلام إلى واقع الحال. وفي كل هذه الحالات توجع الأبرياء وسقطت منهم الضحايا وبدون سبب...

وماذا نتج عن ذلك في لبنان ؟ فقد بقي "الأشقاء" يعيثون بالأرض خرابا، يعينون الدمى في الحكم وفي الوظائف، يكمون أفواه الناس الجائعة إلى اللقمة وإلى الحرية وإلى الكرامة، ويمنعون أحدا من التدخل في شؤون البلد، فلا قرارات الأمم المتحدة تردع (٥٢٠) ولا ملاحظات السفراء، ولا مظاهرات الطلاب، ولا رأي البطاركة والرؤساء. فباع المخابرات طويل وكل من ينطق بالحق عميل يجب توقيفه وجلده وتعذيبه حتى يسود الرعب ويعتاد الناس الذل والتبعية.

ولكن المهم ما بعد ١١/ أيلول، لم يكن الرد العسكري الذي أطاح بطالبان وأثبت أن المارد لا يزال حي، إنما ذلك الوعي، في المجتمع الأميركي خاصة، والغربي بشكل عام، الذي بدأ يتعاظم ويرد الأمور إلى أسسها، وهو الذي يصر اليوم على إيجاد الحلول الناجزة لمشكلة الإرهاب وملاحقة من هم خلفه ومن يحاولون تغطيته، فلم تعد تنطلي على أحد عمليات ونصائح المراكز المشبوهة، وفي كل يوم كتابة جديدة وفكر آخر يفضح أكثر فأكثر مراكز الشر ومموليه ومساندية ومدربيه، ويكشف الأخطاء السابقة في معالجته وطرق التعامل معه. وما مشروع القرار المطروح من الكونغرس لمحاسبة سوريا إلا جزء من هذا الوعي الذي، وككرة الثلج، سيكبر قريبا وستظهر الأيام القادمة صحته ولو عارضه أمثال ساترفيلد ومدرسته البائدة.

فهل إن الوقت قد حان ليكتمل الثمن الذي دفعه الأبرياء، وخاصة في لبنان، لجماعات الإرهاب والتخريب والدكتاتوريات التي مضى عليها الزمن؟ وهل إن بشائر الحلول قد بدأت تلوح في الأفق؟ أم أن الشر لا يزال كبيرا ومتشعبا لدرجة تتطلب قدرا أكبر من الدقة والحزم لاستئصاله من الجذور وبالتالي فهو يتطلب بعض الوقت؟...